

على هامس رماني الى البحار :

في تكية الدراويش

للدكتور عبد الكريم جرمانوس

أستاذ التاريخ الشرقي بجامعة بودابست

عن كتاب نشره باللغة المجرية بعنوان : الله أكبر ،

في يوم الجمعة - وهو يوم عطلة عامة في البلاد الإسلامية -
ففى هذا اليوم المقدس تعطل المصالح والدواوين وتقف
الحوانيت ، ويتحتم على المسلمين أن يهرعوا إلى المساجد إذا
سمعوا صوت الأذان . أما الآخرون الذين لا تربطهم بالتجارة
صلة فهم يقضون ذلك اليوم في اللهو والمتعة على ضفاف النيل
الجميلة وفي داخل الحدائق الفيحاء المبعثرة في جوانب القاهرة
وفي أثناء احتساء القهوة اقترح صديقي حسونه أن نقصد
إلى حدائق الحيوانات للتريض أو تناول طعام الغداء في ظلال
الأهرام . ولكنى أجبته : وما رأيك في زيارة إحدى تكايا
البكتاش

هناك طفح وجه صديقي بشرا . وفي الحال وافقنى على
القيام بهذه الزيارة . فقلت له : لقد زرنا الهرم عدة مرات
وتحملنا بعض المشاق للوصول إليه بالترام . ثم تحدثنا عن
بناء الأهرام وكيف حاول العرب أن يهدموا ذلك الأثر
الحالد لا اعتقادهم بأنه يحوى كنوزاً في جوفه . ولكن على
الرغم من المجهودات الشاقة التي بذلوها فانهم اضطروا إلى
الانقطاع عن هدمه بعد أن أنهمك قواهم وكلفهم نفقات باهظة ،
وعند ما استولى المماليك على مصر كانوا يظنون أن الأهرام
من عمل الطبيعة . وحاول البعض منهم أن يجرب أخذ
الأحجار منها للبناء ولكنهم أكرهوا على التخلي عن هذه
الفكرة لصعوبة تنفيذها وربما كان عدم قدرتهم على تنفيذها
موافقة لإرادة الله الذي قضت حكمته ببقاء هذا البناء المهيّب
الشامخ كرمز لعظمة مصر القديمة . وكثيراً ما قصدت إلى
منطقة الأهرام وقضيت سويقات شاعرية أناجي القمر
وأراقب أشعته اللجينية وهي تغمر الأحجار الضخمة التي
يتألف منها البناء الشامخ

في هذه البقعة الساحرة يجتمع الماضي والحاضر والمستقبل
وتبدو عظمة مصر الخالدة التي بهرت العالم . ولكن مالنا
تغنى الآن بتلك الأكوام الحجرية المكسدة بعضها فوق
بعض . أجل ليس في هذا ما يسر خاطر ولا ما يشرح
النفس - وما هي القيمة الروحية التي تمدنا بها رؤية الأهرام
أمام زيارة تكية الدراويش ، تلك الطائفة التي ما زالت

كان شعاع شمس الشتاء يسطع في جو القاهرة ويتألق في
السماء اللازوردية ، ويريق ضوءه القرمزي على المآذن والقباب
فتوهج أطرافها في الضوء الساطع كما يتوهج الذهب في كف
الرجل الكريم . أما أسطح بيوت القاهرة فكانت فرصة
لها لتداعب هذه الأشعة - تلك المداعبة الصحية - والريح
تعبث بالآوراق والغصون في حدائق قصر النيل الغناء

وكنت في خلال هذا الوقت وحيداً في غرقتي ، شاعراً
بأن السكون يطبق على كيجناحين كبيرين ، ومنصرفاً إلى
دراسة بعض كتب الأدب العربي القديم لأقارن بين عصر
وعصر ، وبلغني التعب أشده من عكوفى على القراءة ومحاولة
تفهم معاني الكتاب لأننى كنت أميل بفطرتى إلى تحليل
أفكار المؤلف والوقوف على المعاني المستترة في باطن الكلمات .
ولاح لي أنني أشبه بفواص يجاهد في بحر من الظلمات ليستخرج
منه اللآلى والأصداق . ما أمر العكوف على قراءة الكتب
الخطية في بلاد الشرق ؟ تغلق باب الغرفة دونك وتحاول أن
تظل بمعزل عن العالم لتمثل في خاطرك العصر الذي عاش فيه
المؤلف والظروف التي كانت محيطاً بها ، وإنها المعجزة أن
يظل الكتاب مهملًا سنوات برمتها ، فإتكاد تفقحه حتى
تهب عليك النسمة القديمة بسحرها وعطرها وتسمع كلام
المؤلف أو صوت الشاعر كأن لم يغيره تقاب الحوادث
وانصرام الاجيال

وفيما كنت أقلب هذه الأفكار وأشبابها إذ طرق
الباب ، وكان الطارق صديقي محمد أمين حسونه ، أتى لزيارتي
ودعوتى إلى نزهة خلوية في ضواحي القاهرة . وكانت الزيارة

تطلب في نفوسنا أسى معانى الخلود ومتاع الآخرة

وانطلقنا في طريقنا إلى تكية البكتاشية بعد أن عبرنا شوارع القاهرة الرئيسية وانتهت بنا العربة إلى مقابر الخلفاء . هناك أفضى إلى صديقي حسونه أنه حين كان طفلاً وأسيئت معاملته أمام الأسرة ، لم يجد من يلجأ إليه سوى كلب أرمنى كان مقعياً على الدرج في نفس هذه البقعة ، وكان يستدفئ بالشمس فاحتضنه ثم بكى . وبعد برهة وصلت إلى سمعه أصوات موسيقية متناثرة ، فإذا بها حفلة من حفلات الزار التي تعودت نساء القاهرة إحياءها . وكانت الحفلة تقام في أحد المنازل المجاورة لتلك القبور ، فجعل صديقي الكلب وانطلق إلى هناك حيث أتيح له أن يشاهد أكثر من عشرين سيدة وهن يرقصن على نغمات الموسيقى بخنون وحشى إلى حد أن كن يتصادمن ويتلاحمن ، وكان البعض منهن يمزقن الأثواب . أو يمتطين ظهور الخراف البيضاء المصبوغة بالدم . وأسر إلى صديقي بأنه أحس بالراحة ساعتئذ ولم يعز هذه الراحة إلى أية صفة مجهولة ، بل يبعد هؤلاء المريضات عن الإنسانية ، وفي عزلتهن هذه ما يشفى عواطفهن المستترية ويبرهن من النضال الدينى الذى وقعن فيه

وبينا كنا نبحث وتجادل في البواعث الحقيقية لحفلات الزار ، ألفتنا أنفسنا أمام أبنية التكية الملصقة بجبل المقطم ، وبعد أن ارتقينا الدرج واجتزنا حدائق التكية أحسست بنشوة وانتعاش ، كالنشوة التى تحدثها الريح في يوم ساكن ، ولقد ازداد سرورنا عند ما اجتمعنا بطائفة من الزوار الأجانب الذين أتوا خصيصاً لشهود حفلات الذكرو والموسيقى ، كذلك رأينا فريقاً من النساء وهن واقفات بخشوع وشاخصات بأبصارهن إلى الأشجار الباسقة التى تكاد تشق أجواز الفضاء .

أما بيوت الدراويش ومساكنهم فتقع في الجهة اليسرى من الحديقة ، وهى مساكن نظيفة ، غاية في البساطة ولكنها فاخرة الריاش ، تزينها لوحات بها رسوم رؤساء الطائفة

السابقين . وتعلو هذه الاطارات - بطة - وهى رمز الدراويش . ويזור التكية عادة جم غفير من أعيان الأجانب وبعض أمراء الشرق ، ولقد شاهدت الكثير من رسومهم الفوتوغرافية وتوقيعاتهم لدى شيخ التكية . ويقع بالجهة اليمنى من الفناء الداخلى مطبخ ضخم البناء ، وما كدنا نصل إليه حتى شممت رائحة الشواء ورائحة الطهى الزكية ، وسال اللعاب في فمى وتحركت شهيتى فتقدمت نحو المطبخ ورأيت الطاهى يشوى شرائح اللحم الضأن . وعزم علينا الطاهى بأن تذوق طعامه ، فلم أجد مانعاً من إجابة طلبه وأخذت ألهم قطعة اللحم بشبهة تبلغ مساحة مطبخ البكتاشية نحو مائة متر مربع بحيث تسع إعداد طعام لأكثر من مائتى شخص تقريباً ، ولقد أخبرنى الطاهى أن للزمن تقلباته وانهم الآن يتوخون الاقتصاد في ماكلهم مع انهم من سنوات خلت كانوا يتمتعون بأنواع المأككل الشبيهة ، وأنهم كانوا يولون الولائم الفاخرة لأكثر من مائة ضيف بعد انتهاء حفلات الذكر ، أما الآن فقد تغيرت الأحوال لأن الهبات التى كانت تصاهم كادت تقطع ، ومن الغرابة أن كل ما فى التكية قديم أثرى ، فالدراويش قد بلغوا من العمر عتياً ، لا يعرف من أمرهم إلا نفر قليل من سكان القاهرة ، ولا يزورهم إلا خاصة الأصدقاء ، ولولا زيارة بعض الأجانب لأصبحت تلك الدور في عالم النسيان . حتى صديقي المصرى حسونه الذى لازمنى في هذه الزيارة لم ترق في عينيه أحوال تلك الطائفة ولكنى على الضد منه أقيمت لذة عظيمة لزيارة هذه الطائفة التى تربطنى بها روابط روحية .

البقية في العدد القادم

عبد الكريم هريمانوس

قريباً جداً

القاضى عمر

قصة الشعر والخيال والتاريخ
للأستاذ عبد الغنى سلامه